

وبذلك كانت الفلسفة العربية فلسفة مشتركة، وبالمثل كان العلم العربي علمًا مشتركًا، بحيث يحسّ العالم العربي إحساسًا قويًا بأنه حلقة في سلسلة متصلة، وهي سلسلة كما تصله بأسلافه تصله بمعاصريه، فإذا هو يقرأ لهم ما يؤلفونه، ومن أغرب الأشياء أن كانت الكتب تنقل في تلك الحقب الماضية بسرعة قد لا نتصورها الآن، ويبدو أن عمل الوراق كان واسعًا جدًا وأن الوراقين كانوا بمجرد أن يكتبوا كتابًا لعالم ينشرونه في أوسع نطاق، وقد ساعدت على ذلك الرحلة السنوية المتصلة من جميع الأقطار العربية إلى المدينتين المقدستين في الحجاز، فكان العلماء يرون بالوراقين ويأخذون منهم الكتب الجديدة.

وكان العلماء يتراسلون: علماء الفقه وغيرهم، وبالمثل أصحاب علوم الأوائل كما كانوا يسمونها: أصحاب الفلسفة والطب وغيرهما، وقد يرحل عالم من وطنه إلى وطن عالم آخر ليناقشه في هذه المسألة من العلم أو تلك وليراجعه في بعض آرائه، وربما بقى في البلدة الجديدة فترة يناظر عالمها ويطارحه في بعض المسائل ثم يعود إلى بلده، كما صنع ابن بطلان طبيب بغداد فإنه رحل منها إلى القاهرة ليلقى طبيبها على بن رضوان، وكانت قد كثرت المراسلات والمحاورات بينها في بعض مسائل طبية وفلسفية. ونزل ابن بطلان مصر لهذه الغاية سنة ٤٤١ للهجرة ومكث بها ثلاث سنوات يناقش ابن رضوان في بعض الأمراض والأدواء. ولعل في ذلك دليلًا واضحًا على ما نقول من أن لغة الطب كعلم من العلوم العربية كانت واحدة، وبالمثل كانت مصطلحاته وإلا ما استطاع هذان الطبيبان: البغدادي والمصري التفاهم، ولو أن ما ثقفه أحدهما عن علم الطب وتراثه كان مختلفًا في لغته العلمية ومصطلحاته عما ثقفه الآخر ما اجتمعا ولا التقيا ولا تراسلا ولا اشتركا في مناظرة طبية. وهذا نفسه يلاحظ فيمن كانوا يرحلون عن بلدانهم رحيلاً نهائيًا إلى بلدان أخرى ويستقرون بها، ونقصد العلماء من أمثال ابن الهيثم عالم الطبيعة المشهور فإنه هاجر من بلدته البصرة إلى القاهرة وأقام بها إلى وفاته يفيد منه الطلاب والعلماء والمتفلسفة بلغة الفلسفة والعلم التي كانت قد أصبحت لغة مشتركة بين الأقطار العربية. وبعد نحو قرنين من هجرته